جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المحاضرة الأولى: البدايات الأولى للرواية المغاربية

يتعيّن علينا كباحثين في بداية الحديث عن الرواية المغاربية ، أن نحدّد المنطلقات الأولى التي حددّت بها هذه التسمية. ونكون مضطرين إلى ربط هذا المنتوج السردي بإطار خارجي، مرجعي، يحيل على التسمية " المغاربية" في الحقل الإنتاج الثقافي والإبداعي.
لقد اهتمت مجلة " آداب " الصادرة في يناير 1953، بأوضاع المغرب العربي. ولكن صورة هذا المغرب لم تكن قد تبلورت بعد في أذهان كتاب المجلة، ذلك أنّ هؤلاء الكتاب كانوا يستعملون عبارات جغرافية غير محددة نقلا عن المصادر الفرنسية غالبا، مثل (افريقية الشمالية). وكان أوّل عنوان اختاره مراسل الآداب في باريس لمراسلته هو (الأدب الإفريقي بالفرنسية). وقد تحدّث فيها عن روايتين لكاتبين جزائريين وهما (الربوة المنسية) لمولود معمري و(البيت الكبير) لمحمد ديب. وقد حلّل الروايتين وأظهر مفهومهما السياسي المعارض للاستعمار رغم أنّهما كتبتا بالفرنسية.
وفي المراسلة الموالية عاد إلى نفس العنوان وهو (عود إلى الأدب الافريقي)، حيث تحدّث عن نيل محمد ديب لجائزة عن روايته السابقة وعن قرب صدور رواية مولود فرعون (الأرض والدم)، وعن كون (الربوة المنسية) لمولود معمري قد حصلت أيضا على جائزة، الخ. ولكن ألآداب سنة 1953 كانت ما تزال تتحدّث عن الأدب الافريقي بدلا من الأدب الجزائري، وكان مصدرها في ذلك (باريس) وليس (الجزائر)، ولا حتى المغرب العربي.
وبدأ هذا الغموض الجغرافي يزول بدخول سنة 1954، وذلك فيما كتبه الدكتور سهيل ادريس وهي مقالة بعنوان " القصة العربية في افريقيا الشمالية "، التي لفتت الانتباه إلى أدب المغرب العربي.. وركز هذا الباحث على ادب تونس، وخاصة إنتاج محمود المسعدي.
أمّا فيما يتعلّق بالجزائر، فقد أشار إلى ضعف مستوى الثقافة العربية فيها (لم تكن الثورة قد اندلعت بعد)، وحكم بانعدام القصة العربية فيها. واعتبر

محمد ديب ومولود فرعون من أدبائها بالفرنسية. مضيفا أدباء فرنسيين مولودين بالجزائر مثل ألبير كامو وعمانويل روبلس. وربط الدكتور إدريس في مقالته بين نهضة الأدب العربي في المغرب العربي وبين تحقيق الاستقلال والحرية. لذلك تمنى في الأخير حصول " افريقيا الشمالية " على استقلالها السياسي حتى تغني الأدب العربي بطاقة جديدة.

وسرعان ما بدأ اسم (المغرب العربي) يظهر على صفحات الآداب، فقد فتحت بابا بذلك العنوان في قسم النشاط الثقافي العربي، واستقبلت مراسلات من تونس عن الحركة الأدبية في هذا البلد، ومن مراكش عن القصة العربية في هذا القطر أيضا. وقد استمر هذا الاهتمام بالمغرب العربي في تصاعد. وفي هذه الفترة كتبت في الآداب مقالتي(أرض الملاحم أو في طريق الياذة جزائرية)، كما نشرت بعد ذلك فيها، باسم رشيد الخولي، تعليقا حول أرض الملاحم. ولكن اهتمام الآداب بالجزائر كان وما يزال ثانويا. فقد كانت أخبارها تأتي من باريس وليس من المغرب العربي.

وتوالت الأعداد المتوالية لمجلة آداب، من سنة 1956، إلى سنة 1962، حيث ضمت عددا كبيرا من القصائد والقصص والأخبار التي يتعاطف أصحابها مع الثورة، من مختلف أنحاء الوطن العربي، بما في ذلك الجزائر نفسها، كما قدمت الآداب أعمالا لترجمة كتاب فرنسيين أو جزائريين يكتبون بالفرنسية.

ومن خلال هذه المجلة عرف الناس الأدب الجزائري بلغتيه العربية والفرنسية. فبعد ربع قرن من الاحتلال والاستعمار المباشر، قدمت الآداب إلى قرائها نماذج من إنتاج الجزائريين الأدبي. فعبر صفحاتها عرف القراء، عربا وغير عرب، من هم أدباء الجزائر بالفرنسية (كاتب ياسين، مولود فرعون، محمد ديب، مالك حداد، مالك بن نبي)، كما عرفوا نماذج من أدبائها بالعربية (محمد العيد، أحمد رضا حوحو، عثمان سعدي، الجنيدي خليفة، أبو العيد دودو، حنفي بن عيسى، أبو القاسم سعد الله).

أمّا التوجّه المغاربي في الحقل الثقافي، مجسّدا في الإبداع الأدبي، مثّلته مجلة " أنفاس" Souffles، التي تعتبر نموذج حركة أدبية طليعية في منتصف الستينات القرن الماضي قبل أن تغيّر نهجها وتتحوّل في منعطف العقد السبعيني إلى لسان تنظيم ماركسي.

جمعت هذه المجلة مبدعين مغاربة، عند انطلاقها، وكلّهم يكتبون باللغة الفرنسية، طرحت مشروعها في العدد الأوّل (العدد – المانفست) مقترنا بالأدب المغاربي، ذي التعبير الفرنسي، طبعا، بل أكثر من ذلك سجلّت

تحديها الإبداعي، لمّا تعثّر الأدب، مما جعلها تعلن نزعة إحياء تمتحن فيها مواهب جديدة، تقطع مع التركة المرسومة من قبل الرواد(كاتب ياسين، محمد ديب، مولود فرعون، ألبير ميمي، وحتى إدريس الشرابي) المنجزة، حسب الأنفاسيين، في إطار إشكالية المثاقفة.

وغدا الأدب المغاربي للجيل الثاني " المتمرد " متجاوزا مرحلة التأسيس والتبرير إلى التأصيل والترسيخ بالنظرية بعد النص. في مقالة رئيس بعنوان: " الأدب المغاربي الراهن والفرنكفونية " (أنفاس 1970) يسعى عبد اللطيف اللعبي لوضع سياق للنقاش حول هذا الموضوع.

وتتباين مواقف جماعة " أنفاس " من استخدام لغة أجنبية بين اعتبارها إمّا " غنيمة حرب "، بتعبير كاتب ياسين، أو" إقامة في المنفى " بعبارة مالك حداد، أو أداة لترجمة حميمية الشعراء، ولتفجير غضبهم وإداناتهم، و من أجل مساءلة ملحة للواقع بدءا من الثورة على أساليب القول الكلاسيكية الجامدة في الثقافتين الغربية والعربية، بلغة الأنفاسيين، يترافق الإحساس بوعي يعقلنه، أي بتفكير ينظمه، يمنهجه..

لقد أشار الباحث والروائي عبد الكبير الخطيبي في ديباجة له لأحد أعداد " أنفاس " للخصائص المشتركة المرصودة في الأدب المغاربي، أهمها:

- خاصية المرحلة الأولى، مع الحرب العالمية الثانية، المتسمة، والصور المونوغرافية، وعموما خطاطات الواقعي الغربية للقرن التاسع عشر.
- خاصية المرحلة الثانية تتبلور مع أجيال جديدة تريد التخلّص من الغرب، باعتبار الكتابة " طريقة نضالية لتحمل المسؤولية " و من الناحية النظرية " محاولة لإعادة تأويل الكتابات الغربية، ولتجاوز تناقضاتها بواسطة إرهاب غنائي، وبحث عنيف عن الثقافة الوطنية.
- الخاصية الثالثة تتجلى في تميّز هذه الكتابة بمسحة سوريالية، " كمظهر لطابعها الوحشي الهامشي، الذي هو في وضع قطيعة.
- بالإمكان إضافة خصيصة رابعة تلتقط على مستوى الخطاب، هذه المرة، لا الدوال، ومناطها التناقض الذي لاحظه صاحب " الذاكرة الموشومة " بذكاء، حين قال: " إنّ التناقض الأكبر[لهذه الكتابة] يكمن في رفض الثقافة الفرنسية والرغبة، في آن، في إعادة خلق اللغة الفرنسية"، ما عدّه نزعة تجريبية لا تني تعيد النظر في كلّ أدب نشدانا لما يتجاوز الأعمال السابقة، وهذا ما يعرّف الأدب الحقيقي.

ويعتبر الخطيبي أحد الأصوات القوية في ستينات الأدب المغربي الكتوب باللغة الفرنسية وما تلاها، أوّل من مأسس الرواية المغاربية وأهّلها جامعيا لتصبح في المحافل الأكاديمية، وذلك في أطروحته للدكتوراه بفرنسا سنة 1968 عن هذا الموضوع بالذات. اهتم بالسرد، باحثا عن التشكلات البنيوية للثقافة الوطنية، معتمدا منهج البنيوية التكوينية للوسيان غولدمان، وبحثه في إطار سوسيولوجيا الأدب، بصفة عامة. في مقالة له بعنوان " الرواية المغاربية والثقافة الوطنية " (أنفاس، ع 3- 1966). يسجّل الخطيبي أنّ الفضل يرجع إلى الكتاب ذوي التعبير الفرنسي في دمج الرواية داخل الثقافة المغاربية.
ويعتمد الخطيبي المغرب والجزائر وتونس كمجال جغرافي لمرجعيته النصية، مستندا إلى عوامل معلنة وأخرى مضمرة، لكنّها في المحصلة جماع امتداد المكان، والظرف السياسي المتماثل معيّنا في الاستعمار، والهيمنة الثقافية التي سيّدت لغة تعليم وأنتجت، بالتالي، نخبة تولت إعادة إنتاج اللغة الأجنبية، ستصبح لغتها- لإبداع أدب (رواية) مضاد بخطاب منددّ بالاستعمار.
في إطار المثاقفة المركبة التي تتحرّك في فلكها الرواية المغاربية، ذات التعبير الفرنسي، طبعا يتواجه قطبان يتضافران لصنع الإشكالية الأساس في هذا الإنتاج، الحامل تسميته هذه بناء على قواعد التعبير الأدبي عند " ماشيري "، المطورة لحقل التحليل الاجتماعي للأدب، قطب نضالي طبقي(= ماركسي أو من قبيله) يقارب الكتابة، الرواية، بوصفها تعبيرا عن هوية وطنية طرف في صياغة الشخصية الوطنية، الموجودة في مفترق الطرق بين تمثيلات وعوائق المثاقفة، وبين إعادة بنائها وفق التطلعات التحررية لما بعد الاستقلال إنّ الرواية المغاربية، هي من إنتاج الأقطار المغاربية، تنتمي إلى حقل الأدب العربي الأوسع، رغم كلّ خصوصياتها التاريخية وموضوعاتها وأساليب أدبائها.وعندما يتّم الحديث عنها في إطارها المغاربي يعني نقلها من الأدب العام إلى الأدب الوطني، حسب الشروط التاريخية التي أفرزتها.

من وجهة نظر تاريخية أسّس الروائيون الجزائريون الحداثة الروائية باللغة الفرنسية في فترة موازية لنفس التجربة باللغة العربية في الشام ومصر، منذ الثلاثينات، وهذا ما جعل الرواية الجزائرية بالعربية غير منتظمة على مستوى النشر إلا ابتداء من سنة 1971، بعد صدور رواية " ريح الجنوب

" لعبد الحميد بن هدوقة. هذا على مستوى النشر، أمّا فيما يتعلّق بأوّل نص روائي كتب قبل هذه الفترة، كان لرضا حوحو، بعنوان " غادة أمّ القرى . ظهرت هذه الرواية عام 1947، بينما تعتبر رواية " اعترافات إنسان " لمحمد فريد سيالة التي صدرت سنة 1961، أوّل عمل روائي ليبي، وهناك من يذهب بعيدا فيعتبر أوّل رواية ليبية تعود إلى سنة 1937، بعنوان" مبروكة " لمؤلفه حسين ظافر بن موسى، وقد طبع في دمشق. أمّا في تونس، فأوّل رواية كانت من إنتاج محمد العروسي المطوي، معنونة " ومن الضحايا " ، وقد صدرت سنة 1956. وتعدّ رواية " الأسماء المتغيرة " لأحمد ولد عبد القادر أوّل نص روائي موريطاني، صدر سنة 1981 عن دار الباحث للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت اللبنانية، حيث يتجلى التأخّر المضاعف مقارنة بظهور الرواية المشرقية، فقد عرفت أوّل رواية عربية النور في مصر في عام 1914، بعنوان " زينب " لمحمد حسين هيكل، وصدرت أوّل رواية عربية في عام 1921 م معنونة " في سبيل الزواج " لأحمد السيّد.

أمّا في المغرب، اتخذت الرواية المغربية من النماذج الروائية المشرقية والغربية نماذج لها، خاصة في تقليد ثوابت تكوّن الجنس الروائي. واختلف الكثير من النقاد حول بداية هذه المرحلة.وهناك من يعتبر" الرحلة المراكشية " 1932 ، عند ابن المؤقت أوّل عمل روائي في المغرب، ومن يعتبر تجربة " الزاوية " سنة 1942 للتهامي الوزاني نموذجا لهذه البداية، وقد طبعت في أواخر الأربعينات من القرن الماضي، وهناك من يفضّل " وزير غرناطة " 1950، لعبد الهادي بوطالب كبداية الرواية المغربية، وهناك من يرى أنّ " في الطفولة " سنة 1957 لعبد المجيد بن جلون في الخمسينات – وهي سيرة ذاتية – هي الانطلاقة الحقيقية للرواية ب المغرب. وهناك من يعتقد أنّ البداية الحقيقية للرواية بالمغرب كانت في الستينات مع " سبعة أبواب " سنة 1965، و" دفنا الماضي " سنة 1966 لعبد الكريم غلاب و" جيل الضمأ " سنة 1966 لمحمد عزيز لحبابي، ويوجد من النقاد من يصّر على أنّ لا أهمية للبحث عن أوّل رواية بالمغرب، وأنّ التأريخ لهذا الجنس الأدبي بالمغرب يبدأ مع أوّل رواية عربية وهي موضع خلاف أيضا.

ورغم هذه الخلافات في تحديد بداية الرواية المغربية، يميل بعض الدارسين إلى حصر البداية في رواية " الزاوية " عام 1942، حيث ترتبط بعقد الأربعينات، الذي عرفت خلاله الثقافة المغربية انفتاحا كبيرا على الضفة

الشمالية، وخصوصا إسبانيا وفرنسا. وتجسّد رواية " **الزاوية** " هذا الانفتاح بقوّة." وبالرغم من أنّها لا تتوفّر على مؤهلات فنية كبيرة، إلا أنّه ما يجمع بينها الحفظ الكبير بين الروائي والسير ذاتي، بحيث لا تخلو رواية من الروايات المذكورة من هذا الخلط على المستوى الحكائي، وكذا حضور الآخر أي الغرب كعنصر أساس وفاعل في عملية الحكي، إضافة إلى اعتماد قواعد الكتابة الكلاسيكية الكلاسيكية، وهي سمات طبعت المرحلة التأسيسية للرواية المغربية".

إنّ نص رواية " الزاوية " لا يقلّ أهمية عن نص الرحلة المراكشية، وخصوصا على المستوى التكويني، حيث جسّد نبض المرحلة،، وما تعيشه النخبة المغربية من تردّد بين النموذج العربي الشرقي، والنموذج الأوروبي الغربي.

ويمتد ظهور الرواية المغربية زمنيا إلى منتصف الستينات، إلى سنة 1967، وهو تاريخ صدور رواية " **جبل الضمأ** " لمحمد عزيز الجبائي، فلا يبغ عدد الأعمال الروائية في هذه المرحلة أكثر من 15 رواية، مما يكوّن أغلب أعمال هذه المرحلة باستثناء عناوين خمسة، باعتبارها أعمالا تمتلك قيمة فنية تمثيلية كبيرة، تؤهّلها لإعطاء صورة عامة وواضحة عن ملامح الكتابة الروائية المغربية.

وارتبط تأخّر الرواية المغربية باستمرار الأجناس التقليدية كالكتابة الشعرية كجنس أدبي مركزي، إلى جانب حضور الأنواع النثرية القديمة، تجسّد أساسا في أدب الرحلة. وفسّر هذا الغياب بطبيعة التركيبة الاجتماعية التقليدية السائدة، وذلك اعتبارا لخصوصية الرواية كجنس أدبي يتعلّق شروط ظهوره بشكل عام بالانشغالات الثقافية والفكرية للفئات البورجوازية. هذه الأخيرة التي قادت معركة الاستقلال، وتمكنت من الاستمرار في بسط نفوذها ، وهيمنت على الصعيدين المادي والفكري. كما ساهمت البورجوازية الصغيرة من منظورها الخاص في إثراء الحركة الأدبية وفرض نموذجها الفني، وهو النموذج الذي يكتفي برصد الهزائم التي ألحقت بهذه الطبقة، واستثمارها كخلفية فكرية وإيديولوجية تغني العمل الفني وتكشف عن طبيعة هذه القوة الاجتماعية الصاعدة وعن عجزها عن مواصلة مهام تاريخية أكبر من قدرة تلك القوة وتكوينها الخاص.

أمّا الطبقة البورجوازية الكبيرة فركزت بصفة أساسية على الماضي، باعتباره نبعا تاريخيا حافلا بالتضحيات والمكاسب، في حين انصب اهتمام مثقفي البورجوازية الصغيرة على الواقع المعاش، الذي انتقدوه وعروا

مظاهره الشائعة لتوظيفه جماليا وفنيّا في أعمال روائية نحتوا شخصياتها من نماذجه المقهورة. بينما تقوقع آخرون داخل ذواتهم، فألهتهم ذواتهم عمن عداهم.أخذوا يدورون في تلك الدائرة المغلقة المحدودة.

إعداد الأستاذة : **واتيكي كميلة** **بتاريخ : بجاية 5 أفريل 2020 م**